نص البحث المقدم في الملتقى الدولي الأول لقسم الفلسفة

جامعة حلوان - القاهرة ج م ع.

تأليف: علي زيكي

معهد الفلسفة

جامعة الجزائر

نص البحث المقدم في الملتقى الدولي الأول لقسم الفلسفة جامعة حلوان - القاهرة ج م ع.

علي زيكي
معهد الفلسفة جامعة الجزائر

عنوان البحث: الفلسفة كعامل تواصل وتوازن بين الثقافتين «العلمية» و«الأدبية - الإنسانية».

فرضية البحث: لو فُلسفتْ كل العلوم لاكتملت المعرفة الإنسانية ولتحقق الخلاص البشري في الدارين.

لا أخفي على السادة الأساتذة المشرفين على تنظيم هذا الملتقى وعلى السادة الحضور، أني قرأت مراسلة جامعة حلوان حول عقد ندوة دولية في الفلسفة، بكثير من الإستخفاف والإرتياب، إعتقادا مني، في أول الأمر على الأقل، أن التفكير في مثل هذه الملتقيات يعدّ مضيعة للوقت وتبذيرا للأموال العمومية في ما لا يجدي.

ولقد ظهر لي وأنا في غفلة من نفسي، أن النهوض إلى مواجهة القضايا الجوهرية الشائكة، والمضطرمة أورّاها في مختلف أنحاء العالم أكثر إلحاحا من تنظيم ملتقى للتفكير في كيفية إستقبال القرن الواحد والعشرين الطارق على الأبواب.

كما بدا لي وأنا أحاور نفسي أن مجرد الإلتفات إلى ما يمكن أن تقدمه الفلسفة من وسائل التحليل والتنظير والعقلنة، في عصر لا يُقسم إلا بالرياضيات ولا يعتمد إلا على التقنيات يعدّ هروبا إلى الأمام عوض المواجهة الشجاعة للواقع المعقد والأليم.

ولكن بعد التحفظ والتردد تبين لي أن انعقاد مثل هذا المؤتمر في بلاد الحضارة، وتمكين السادة الأساتذة المشاركين من زرع أفكارهم المتباينة، بالضرورة، هو في حد

ذاته نجاح باهر. ألم يقل مارسيل ماوس أن الحقيقة إنما تنبجس من شرارة الأفكار المحتكة؟ ثم ألم يقل سان سيمون من جهة أخرى وفي نفس السياق، بأن وظيفة المثقف المتفلسف تقتصر أساسا على زرع الأفكار في مهب الريح التاريخي؟.

فعسانا نقتدي بسان سيمون، ونتحول بالمناسبة إلى مزارعين للأفكار، نحسن إنتقاءها، نجيد صياغتها، ونحكم طرحها وندقق فلاحتها بالتحليل والمناقشة، وفي الأخير نقوى على اشباعها التأكيد بفنون البرهان المنطقي، وبقرع الحجج البالغة والبليغة. فإذا ما صمدت الفكرة المزروعة أمام قوة البرهان كان ذلك دليل خصوبتها، وإلا تركناها إلى غيرها من الأفكار.

ولكن ما هي الأفكار التي يمكن زرعها في هذا العصر؟ وأية أرض ثقافية لم تتصحر بعد بفعل التقانة حتى نزرعها وننقشها بالتحليل ونقطفها بالإستدلال؟.

ثم ما هي الأفكار الفلسفية القادرة على إختراق كتلة المعرفة العلمية، المتراصة البناء، والمحكمة الإستدلال والإستنتاج؟ ألم نسمع منذ وقت أن العلم المتوكأ على عصا الرياضيات، يهزّ بها على رأس كل ظاهرة من ظواهر الكون الشاسع، لم يترك منها ولا ظاهرة ومهما كانت ضئيلة بدون أن يدرجها في شبكات قوانينه الرياضية الصارمة؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن توسيع نطاق استعمال الرياضيات في تكميم الظواهر قد توسع ليشمل ويقبض حتى على الميدان التاريخي الاجتماعي ذاته. وهكذا فإذا كان العلم قد نجح في اكتشاف كل ما يمكن أن يكتشف، وهو رأي ما طفق يسود أوساطا علمية واسعة جدا فماذا يمكن أن ينتظر من الفلسفة المسكينة؟

ألا يستحسن تسريحها وإعفاؤها من وظيفتها النقدية اللامجدية بحكم هذا المنطق؟ ألا يكفي الناس ما يعانونه يوميا من الشرور القاتلة والهموم المثقلة، حتى نزيدهم حيرة معاناة التفكير والنقد اللا محتملين؟

الحقيقة أن التمادي في طرح هذه الأسئلة، المشروعة في رأينا، قد يبعدنا عن صلب الموضوع، وأن لم يخل ذلك من التمهيد المنهجي له.

نعتقد بأن موضوع مستقبل الفلسفة خلال الألفية القادمة يمكن أن يعالج على أكثر من مستوى: ونكتفي بالإشارة إلى طبيعة ومستوى الممارسة المكثفة للعلم في البحث الجامعي والميداني للمجتمعات الغربية، وما آلت إليه النتائج الحاصلة، من التمكن من (مكننة)، والتمقنن من (تقانة) والتآلي من (آلة) مع ملاحظة آثار وعواقب نتائج الإستعمال المفرط للعلم بعد تأدْلجه وتسيّسه(1). فالتحديات والمخاطر القائمة في وجه الإنسانية، سواء منها الفعالة في العلم والتقانة (المجتمعات الغربية) أو المنفعلة بهما (العالم الثالث) ماثلة للعيان، وأظهر هذه المخاطر، التوازنات المختلة بين التقدم المطرد والمتبادل بين العلم والتقانة، وانعكاساته السلبية على الحياة الأخلاقية الثقافية للإنسان والمجتمع عموما.

وواضح أن معالجة مثل هذا الإختلال لا يأتي إلا بإعادة النظر في طريقة تعامل العلم ذاته مع السؤال الميتافيزيقي المركزي: ما الإنسان؟

إن الجواب على هذا السؤال قد يؤدي إما إلى مزيد من التشيء الفضيع للإنسان وتمييع حياته الروحية، بتصريفه عنها وإغراقه في وحل الماديات، وإما أن يؤدي إلى تكريس إنسانية الإنسان وذلك بتأكيد ضرورة الجمع المتزن والمنسجم بين مقتضيات الحياة المادية الملحة وبين مطالب الحياة الروحية الضرورية والأساسية في نفس الوقت.

ويبقى أن مفتاح الحل يكون بوضع منظومة معرفية علمية جديدة تتجانس فيها معارف الإنسان الطبيعية وتتناسب مع مداركه ومعتقداته الإجتماعية التاريخية والروحية.

وبطبيعة الحال فإنه من المناسب أن تشكل الفلسفة مركز الثقل لهذه المنظومة المعرفية من حيث أن الفلسفة بمثابة مبتدأ العلوم وخبرها. ألم تبدأ كل العلوم عملها من حيرة وتساؤلات الفلسفة؟ ألا ترجع إليها في كل مناسبة «تباركها» على مسعاها المنهجي، وتثني عليها في نتائجها الحاصلة؟ فعسى ألا تغفل أو تتغافل الألفية القادمة عن مثل هذه الممارسة الخصيبة والممتعة حقا.

وتجدر الآشارة من جهة أخرى إلى أن الممارسة الفلسفية لهذا العصر مدعوة إلى مراجعة «المنهجية العلمية» التي صاغ بها الغرب مفهومي العقلانية والحداثة، وكيف سخرهما للسيطرة على العالم وقيادته بإسم الحقيقة العلمية التي اكتشفها وحده، غاضا الطرف عن اسهامات المجتمعات الأخرى في ذلك. أي لا بد من تكريس المبدأ القائل بأن إنسانية وشمولية الممارسة الفلسفية لا تتعارض وخصوصية الثقافات المحلية مهما بدت «بدائية».

وبتكريس هذا المبدأ تتحطم الأسس المتعسفة التي انبنت عليها الإحتكارات العلمية والسياسية للغرب وتستبدل بنظام دولي فلسفي جديد يؤكد صراحة بأن الفلسفة ممارسة إنسانية لا تقوم على العرق وأو اللون أو الجنس أو اللغة أو التاريخ.

الفلسفة بين الألفية الثانية المتناهية، والألفية الثالثة المتنامية:

إذا كانت الفلسفة باتت تشكل جبر التاريخ ووعي العصر وروحه المتوقدة كما يقول هيجل HEGEL فهل لهذا العصر فلسفته الخاصة به تلخص وعيه وتنم عن روحه؟ وما طبيعة وقيمة وأبعاد هذه الفلسفة؟

إن الجواب عن هذا السؤال قد نجده عند الأستاذ ج. دوفينيو J. Duvignaud في كتابه الهام «ولوج القرن العشرين»، إذ ذكر أن سحرة بلاد هايتي يختطفون من حين لآخر شخصا ما: ثم يعزلونه ويخدرونه، وفي الأخير ينعون له خبر وفاته، بأن يجعلوه يشرف شخصيا على جنازته، وبطبيعة الحال يتحول الميت المغبون إلى ظل تائه على ضفاف جهنم الحياة، ويصبح عبدا مطواعا ومطيعا لسحرته وجلاديه. ويدعي هؤلاء بالأحياء - الموتى ZOMBIS. ويفهم من هذه القصة الطريفة أن حال المعاصرين لا يختلف كثيرا عن وضع إنسان هايتي. إن أناس هذا العصر المبنجين بأثر أفعال كثيرة ومختلفة هم في الواقع «أحياء موتى» وأن تكيفهم السلبي مع الأشغال الآلية جعلهم يأتون بتصرفات لا علاقة لها بالإرادة والتفكير. وهذه الوضعية المضحكة لا تخص

البسطاء من الناس فقط، بل تتعداهم لتشمل تصرفات المثقفين إزاء وداخل مجتمعاتهم. ألا نلاحظهم يندفعون بحماسة كبيرة يلجون و«يفتحون» الأراضي الجديدة «للحداثة» و«ما بعد الحداثة» على حد تعبير ليوطار J.F. Lyotard؟ ألا يصرون على الركض وراء إنجاز مشاريع «ثورية» قد تبين غيّها وتأكد إفلاسها منذ زمن طويل؟ وإنهم في كل ذلك شبه نيام مستغرقين في الأحلام اللذيذة للقرنين الماضي والجاري.

إن مثقفي هذا العصر المفتونين بسحر أحلام ووعود القرن الماضي باتوا كما يقول نيتشه F. Nicezsche يجترون المحصول الثقافي العلمي للقرن الماضي بكل سلبية وقصور، لا يقوون على مضغه وتمثله ولا على تجاوزه.

فتبعية مثقفي القرن العشرين الباهت لمثقفي القرن التاسع عشر الزاهي تظهر في جميع الميادين. وحيث أن مثقفي أي عصر لا يحطمون من المفاهيم كما يقول كونت A. Comte إلا ما يقوون على تعويضها، فإن مفكري هذا القرن لم يتوصلوا بعد إلى صياغة أي مفهوم جديد حقا، يقوْلبون به خلاصة تجاربهم ومعاناتهم. كما إنهم لم ينسجوا أية يوطوبيا جديدة تشحذ هممهم وتسوط خيالهم ويتطلعون إلى إنجازها. إنهم بهذا لم يفتتحوا أية مشكلة جديدة ولا إجترحوا منهجية رائدة ولا بنوا علما من أيس على لغة الكندي. وباتوا يقفون على عتبة القرن القادم معصبي العيون ومبنجي الوعي.

فما أشبه إنسان هذا القرن المستغفل بفعل السياسة الماكرة بإنسان سنة 1000 المنهمك في «تحرير» صكوك الغفران أو بإنسان بيزنطة المستغرق في مناقشة جنس الملائكة ورياح التاريخ تعصف بهم تحت وقع جحافل التتار، يدفعهم إلى حيث لا يدرون.

وهكذا فإن مشاهير مثقفي العصر الغربي، انتهوا من تشخيصهم لحال أروبا إلى القول بأن هذا العصر مريض حقا، وأن الفلاسفة من حيث أنهم أطباء الحضارة على حد تعبير نيتشه هم وحدهم القادرون على اكتتاب الدواء الناجع. وفي انتظار ذلك باتت صيحات اليأس المتمكنة من نفوس الناس تدوي مستصرخة ومستجدية وتنادي ولا من مجيب. إن اللوحات المرسومة لأروبا سوداء قاتمة وقاتلة حقا.

فهذا نيتشه يؤكد موت الله ويتوج الإنسان سيد نفسه وعالمه بلا منازع. وهذا طوماس مان T. Mann يجعل من أروبا مستوصفا للمصابين بمرض السل المعدي. كذلك انتهت تأملات فاليري P. Valéry النيرة إلى القول بعد زيارة مقبرة فردان Verdun الشهيرة بأن حضارة بهذه الوحشية مائتة حتما.

ولم تزل صيحات اشبنجلر E. Spengler المذعورة تدعو الناس إلى لم الأمتعة والحقائب استعدادا للرحيل إلى حيث الحضارة والأمل والمستقبل المشرق. وإذا تعذر ذلك واجتاح اليأس الحضارة الإنسانية كلها وتملكها يدعوا اشبنجلر إلى الإلتحاق ببيزنطة وروما في مصيرهما البائس.

ونصل إلى نتيجة أولية نبني عليها مقدمات جديدة لهيكلة بقية الموضوع ونقول بأن حظوظ هذا العصر في إجتياز امتحان الإنتقال إلى القرن الموالي تظل ضئيلة طالما لم ينجح في تصفية حساباته مع الماضي والتصالح معه. وهو ذلك الماضي المثقل بمثله العليا الشامخة، وبإنجازاته العلمية الباهرة، وباختراعاته التقنية الفائقة في الدقة والقوة. ويشكل كل ذلك أفقا حضاريا يصعب تجاوزه؛ كما حمل من التنبؤات والبنؤات الشاملة ما جعل علماء هذا العصر يخرون راكعين أمامها لا يقوون على مواجهتها ومقابلتها بما هو نابع من صميم واقعهم الفكري الثقافي. فباتوا يستهلكون الفواكه اليابسة (الأفكار) للقرن الماضي عوض التمتع بتناول الأفكار الطرية الجديدة.

فما هي التنبؤات والبنؤات المحمولة وما موقف الفلسفة منها؟

أ - التنبؤات:

نعتقد أن أهم وأخطر مشكلة أفرزها الفكر في القرن التاسع عشر وكرسها قرننا هذا بلا عناء كثير، ما يمكن تسميته «بفكر النهايات». وهي مشكلة محيرة وشائكة حقا يتعين مواجهتها بالتواضع السقراطي وبتهكمه اللاذع والمليئ بالعبر والدروس. وخلاصة المشكلة أن الممارسة العلمية القائمة أساسا على التنبؤ (إذ لا علم بدون التنبؤ كما يقول

أرسطو Aristot) ستجعل من معرفة مكونات أية مادة من مواد الكون في تراكيبها وآلياتها ونوابضها أمرا ممكنا، وأن ساعة هذه المعرفة آتية لا محالة. كما أن ادراج حاصل مثل تلك المعرفة في شبكة من الدوال الرياضية وتنصب في نظرية واحدة ووحيدة أمر سهل كما يقول دعادة هذه الفكرة.

وبديهي أن هذه النظرية إذا ما تحققت، والعلماء لا يساورهم الشك في ذلك، ستجعل الممارسة الفلسفية عديمة الجدوى.

ألم يقل كوندورسي Condorcet بأن العلم لن يترك شيئا للفسلفة تفكر فيه أو تقترحه وتعرضه على البحث والمناقشة؟

وتطبيقا لهذه التنبؤات الفضفاضة الموهمة بالجدية العلمية، سارعت الدراسات المرتبطة بالديناميا الحرارية إلى تأكيد ذلك. وأعلنت في ثقة وإطمئنان وإستنادا إلى فكرتين لا تراجعية أو انعكاسية الزمان، ونفاذ الطاقة المستهلكة بسبب القصور الحراري الذاتي للمادة، أن الإندثار الحراري للعالم المنغلق على نفسه أمر محتوم لا مفر منه. وإذا انطفأت جميع امكانيات التحول والتجديد من الكون والفساد (أرسطو) بسبب استنزاف الطاقة المستهلكة وتعذر تعويضها، استحالت الحياة وانتهت وبلا عودة.

ولقد حاول بعض العلماء التهوين والتقليل من فعل هذه التأكيدات المخيفة، فقالوا بأن هذا التلاشي المستمر لا يمس إلا الأرض وحدها ما دام العلم لم يعرف بعد إمتدادات وأبعاد الكون المختلفة والمترامية الأطراف إلى ما لا نهاية. وعليه فإن هذا الإندثار لن يشمل الكون ككل بل يمس الأرض وحدها. وفي هذا السياق يرى الأستاذ جايراستان أن برودة الأرض ستزداد يوما بعد يوم إلى حين إنقضاء سبل وشرائط الحياة فيها. وفيما يتعلق بالإنسان المصمم على البقاء ومتشبث بالأرض الشحيحة عليه بكل شيء فإن أجله آت لا ريب فيه اللهم إلا إذا هاجر إلى كوكب آخر أرحم وألطف وأبقى من الأرض المنتهية. (هل يندرج غزو الفضاء واعماره بالإنسان في هذا المنظور)؟.

ومما يزيد الموقف هولا أن نعي نهاية العالم المحتومة لم يصدر عن العلوم الطبيعية وحدها بل إنعكس ارتدادها العنيف على بقية العلوم خاصة منها علوم البيئة والعلوم الإنسانية كالأنتروبولوجيا مثلا.

فعلوم البيئة تعيش فعلا هاجس مستقبل الطبيعة المهدد بأطراد مع تزايد النمو التكنولوجي والصناعي (التلوث، التصحر، طبقة الأزون، الطاقات التي لا تجدد ...) وانتقل أثر هذا الوسواس إلى الإنسان ذاته من حيث أن تاريخه معقود على مصير الطبيعة.

ويقول الأستاذ كلود ليفي ستراوس C.I. Strauss بأن العالم سينتهي كما بدأ وفي غياب الإنسان، وأن المؤسسات الاجتماعية المشكلة للعادات والتقاليد والأعراف، والتي نقضي حياتنا لملاحظتها ودراستها وفهمها لا تكتسي في حد ذاتها أية دلالة خاصة أو متميزة، لأنها لا تمثل إلا هذا الوسط المُزهر للحياة الإجتماعية وما يوفره للإنسانية من فرص القيام بالأدوار المسندة إليها ليس إلا.

فدور الإنسان فيها من حيث هو مجرد آلة، ضئيل جدا حتى وإن بدا أعقد وأكمل من جميع الآلات. إن دوره لا يتمثل في مواجهة أو رد عملية التدهور الإجتماعي التي لا راد لها فورا ابتدائها (ابن خلدون)، بل يقتصر فقط على دراسة عملية وآلية التدهور الكلي للكون؟ (هل هي عدوى وضعية وموضوعية العلوم الطبيعية؟) وهكذا فإن علوم الكون والبيئة والإنسان تعتبر مشكلة النهاية المحتومة المرتقبة كتحدي محير للفكر، يتعين مواجهته ورفعه ولكن هذه النهاية ولحسن الحظ كما تقول هذه الدراسات تتعلق بالأفراد المعينين فقط ولا تخص الإنسانية كافة والكون ككل. ومعنى هذا بتعبير آخر أن آجال هذه النهاية المخيفة تبدو بعيدة جدا. ويظل دور الإنسان في التعجيل بها أو تأخيرها طفيفا للغاية كما تبقى المخاوف قائمة رغم هذه التضمينات.

ومن النتائج المباشرة لهذا الإنسداد الفكري أن الناس باتت تعيش في زمان قل فيه التعجب أو انعدم تماما، طالما أن كل شيء فيه أصبح معروفا ومألوفا يستحيل عليهم كما يقول الأستاذ ب. بيكر B. Becker ومهما حاولوا، أن يتصوروا الحياة مثلا «كدراما الهية» حسنة التأليف ومحبوكة الإخراج، أولها معروف وآخرها مفروغ منه، ومغزاها قد بانت واستبانت وانتهى الأمر.

كذلك قد يكون السبب في جفاف فكر هذا العصر، أن العالم بات من وضع المشتغلين بالرياضيات وحدهم، باعتبارها أسهل وأدق الطرق لفهم العالم في كل ظواهره ومظاهره. وعلى هذا الأساس فإن الفيزيقي في تعامله مع الطبيعة كلما اشتد التضييق عليه وقوبل باعتبارات فلسفية وميتافيزيقية محرجة له تخلص منها باللجوء إلى الرياضيات ليحسب ويقدر كل شيء ويتنبأ به على المدى القريب والبعيد. وبحكم هذه المقدرة الفائقة على حساب ومعرفة كل شيء فإن هذا العالم كان من المفروض ألا يعرف اليأس إليه سبيلا ما دام كل شيء فيه ممكنا حسابه وتسخيره ووضعه في قبضة يد الإنسان. لكن العكس تماما هو الذي وقع. والسبب هو أن الإنسان الذي «عقلن» الأسطورة القديمة، والكتب المقدسة السماوية والطبيعة بالفلسفة بعد أن أبعد وأنزل «زوس» Zeus عن السماء، لم يعد يكفيه الوقت ينفقه في البحث عن المبدأ الأول المطلق القديم، كما كان السلف، يثبّت به أقدامه كيما يأخذ في السير من جديد.

إن ذلك المبدأ الأول «المخلوع» لم يعد صالحا لكي يتخذ منه الفكر مقدمة لاستدلال ما. وعوض الركض وراد هذا المبدأ الأول لتستقر عليه الأقدام بات الإنسان الحديث يتعامل مع خليط من العناصر المحيطة به، وهو ذلك الخليط المتمردة عناصره عن كل ترويض أو استدراج حتى تقبل الإنطواء في إحدى المقولات الفكرية التي تقوم على إفتراض نسق منطقي للعالم. فعوض كل ذلك إذن إكتفى الإنسان بملاحظتها وحسابها واستخدامها في الإختبارات، يحققها ينسقها، يقيسها إن أمكن، يستخدمها في الإستدلالات المنطقية أقل ما يمكن. وجملة القول فإن الغاية الكبرى لإنسان هذا العصر هي أن يقيس العالم ويسيطر عليه ويسخره ثم يستثمره، لا أن يفهمه ويتأمله ويتعشق جماله ويتدبر نظامه الهندسي البديع.

ومن مخاضات هذه التنبؤات المستندة إلى التعميمات المستخلصة بكثير من الإستخفاف والعجالة، إنتقال عدواها إلى الميدان الإجتماعي - التاريخي: كهذه النغمة الماركسية المتزينة برداء العلم والتي سارعت إلى القول على لسان فرانتز ماريك أن باستطاعة المرء أن يرقّص حتى العلاقات الإجتماعية المتحجرة إذا ما عزف لها لحنها الدياليكيتكي المحبوب لديها.

وسلك هذا المنحنى المتفائل لحد الإفراط في الميدان التاريخي نفر من المؤرخين المنضوين تحت لواء المذهب التاريخاني، يقولون بإمكان التحكم في السيرورة والصيرورة التاريخية بمجرد إكتشاف قوانينه وهو ما أثار حافظة الأستاذ كارل بوبر K. Popper حين وضع كتابه المشهور «عقم الذهب التاريخي» يرد فيه على تهافت التاريخانيين بلا استثناء، وهذا الإنتقاد حلله وعمقه أكثر في آخر ما نشر له تحت عنوان «دروس العصر».

وهكذا فإن فكرة النهاية لم تعكر نقاء فكر العلوم الطبيعية وحدها بل عدى تسممها الفكر الإجتماعي التاريخي نفسه. ويتعين على الفلسفة توضيح مزالق ومساوئ مثل هذا التفكير بالتحليل الرزين والمناقشة الهادئة، خاصة وأن هذه النهاية تحولت إلى القول بنهاية التاريخ نفسه بل ونهاية الفلسفة عينها؛ وسنرجع إلى هذه الفكرة الأخيرة لعلاقتها بالموضوع.

فلا غرو في كل هذا إذن، فالعصر الذي يعلن موت الله ثم يثنيه بموت الإنسان، لا تكتمل حلقات منطقه ولا تستقيم إلا بتأكيد نهاية كل شيء. هذا عن التنبؤات:

أما عن النبؤات فإنها ستختلف بحسب الغزّالين لمادتها والنساجين لخيوطها، ولكنهم يتفقون في نقطة واحدة على الأقل هي عزوفهم عن العالم المعاش لما فيه من عوامل التفكك والتهور والتدهور، وتعويضه بعالم مستقرة أركانه، متزنة عناصره ومنسجمة أفكاره، عالم خال من التوتر والتفكك والإضطراب، عالم العدالة والحرية والمساواة. إنه عالم الفلاسفة، وعالم الأنبياء والرسل وعالم العلماء. إن هذا النوع من الفكر الجياش مافتئ يسوط عقل الإنسان ويستفز فكره ولا يزال منذ قوانين حمورابي الرائدة ومدن الأنبياء والرسل، وجمهورية أفلاطون الحالمة، فالمدينة الفاضلة للفارابي مرورا بجمهورية الغايات لكانط والعقد الإجتماعي لروسو، وكتابات طوماس مور والماركسية والمدينة الفاضلة لفلاسفة القرن 18 وصولا إلى الوعود «المضمونة» لعلماء القرن 19 بإقامة مجتمع على أسس علمية يتولى فيه العلم حل كل المشكلات مهما بدت معقدة.

ألم يتمحور برنامج العلماء المؤمنين بالعلم إيمانا «دينيا» حول فكرة الإعتقاد بأن

خلاص الإنسان والمجتمع بات مضمونا بفضل العلم وتقنياته التي ستبنى له عالما مستقرا مطمئنا وسعيدا يتوفر فيه على ما لا أذن سمعت ولا أعين رأت؟ ولكن هيهات.

موقف الفلسفة من التنبؤات والنبؤات:

1 - موقفها من التنبؤات العلمية:

قبل الشروع في تحديد هذا الموقف يستحسن تحديد معنى كلمة الفلسفة إبتغاء الوضوح والتوضيح خاصة وأن لكل ناظر في الفلسفة رأيه وموقفه الخاص منها. ألم يقل بعضهم بأنه توجد من الفلسفات بقدر ما يوجد من الفلاسفة؟

نقول أولا بأن الفلسفة ليست علما ولا رغبت يوما ما في ذلك وإن لم يخل تاريخها الحافل من محاولات جعلها علما دقيقا وصارما. وهي لهذا السبب لا تقدم معارف يقينية جاهزة للإستعمال اليومي. ونعتقد مع الأستاذ دولوز G. Deleuze بأن أهم دور يمكن أن تقوم به الفلسفة، ولا ينازعها أو ينافسها في ذلك أحد، هو وضع وصياغة المفاهيم تكون من الدقة والوضوح والبساطة أن تعكس بكل أمانة بساطة التجربة التي إستمدتها منها.

أي أن الفيلسوف الحقيقي هو من يؤمن بقوة العقل على تحويل وصياغة التجربة التاريخية في صورة مفهوم يوظفه في دراسة الثقافة التاريخية بمختلف مظاهرها ومستوياتها، ويرجع بها إلى المبدأ الذي صدرت عنه. ألم يقل هيدجير Heidegger في هذا الشأن بأن الفلسفة الحقيقية لا تبدأ إلا من المشكلات الراهنة القائمة بكل حدة ثم تعمل على الرجوع بها إلى منابعها الأولى؟ ويفهم من هذا أن الفلسفة لا تفكر إلا في المشكلات التاريخية وبهذه المشكلات معا.

فهل فعل أفلاطون أو الفارابي، إبن رشد، إبن خلدون، كانط، هيجل وماركس وغيرهم كثيرون شيئا سوى الإجابة عن الأسئلة المطروحة في مجتمعاتهم؟

ويؤكد الأستاذ ليو ستروس L. Strauss هذه النزعة التاريخية للفلسفة حين بين بأن

هذا الإتجاه يعني أن العقل لا يستطيع مهما فعل أن يتجاوز نطاق التاريخ ولا أن يفكر مشكلتي الخير والشر مثلا إذا لم يتناولهما من وحل الممارسة التاريخية.

إن الفلسفة إذن لا تعلمنا شيئا محددا في ذاته ولذاته ولكنها تعلمنا كيف نتفلسف كما يقول كانط E. Kant وهو شيء مهم جدا بطبيعة الحال. وهكذا فإن الفلسفة من حيث هي موسيقى مقدسة للعقول المفكرة كما يقول رينان Renan تساهم إلى جانب ترويضها وصقلها للعقل في تنظيم المعرفة الإنسانية وتركيب شتاتها المتناثر هنا وهناك تناثر الميادين المستقلة عنها والمتصلة بها رغم / مع ذلك.

وهذه الوضعية المميزة للفلسفة تؤهلها لكي تقوم برعاية وترقية ونقد وتوجيه العلوم الوجهة العلمية / العملية المناسبة، ولكن يبدو وأن إستقالة أو إقالة الفلسفة عن هذا العمل البناء أوقع العلوم الطبيعية بالخصوص في تناقضات، ومآخذ لا تغتفر لا منطقيا، وأخلاقيا، ولا تاريخيا أو حضاريا. فمن التناقضات المنطقية التي وقعت فيها العلوم الطبيعية مصادرتها لقضايا أقرب إلى الميتافيزيقا منها إلى العلم عينه وهذا ما وضحه الأستاذ ستانلي بيت B. Stanley في كتابه «بساطة العلم» حيث وضح بأن العلم يقول أن الكون لا غاية له، وأنه آلة ضخمة صماء، نشأت عرضا وتظل تدور بلا غاية أو هدف لها، والإنسان من جهته لا يشكل إلا ذرة عابرة تافهة في الغبار الكوني، وأن الناس جميعا في ذلك سواء؟ وأن كل ما يمكن أن يفعله الناس هو أن يصمدوا لمصيرهم المقضى في شجاعة وصبر وأن يسلكوا كما لو كان للأمر أهمية حقيقية. فمثل هذا التصوير الأدبي لكون عابث ويائس هو ما يرفعه أصحابه إلى مرتبة الوصف العلمي الدقيق، مع أنه في جدبه وسطحيته يشوه المعرفة الإنسانية ولا يغنيها. فهذه المعرفة ليست إذن علمية بأية حال، لأن إنكار وجود غاية للكون وإنكار إمكان أن تكون هذه الغاية حقيقة كونية يعني أن لدينا وسيلة لقياس هذه الغاية. فهل من عالم إهتدى إليها بعد وطبّقها؟ وأين؟ ومتى؟ وكيف؟.

فمسلمات العلم ومناهجه لا تكفي إذن لإجراء دراسات موضوعية لأمور ميتافيزيقية مثل الحرية والغاية، وأن المفاهيم العلمية المضبوطة، لا تسع الإعتبارات المتعلقة بالغاية.

ويبقى العلم، على أية حال يمثل وجها واحدا من أوجه المعرفة البشرية ليس إلا. أي ليس العلم هو الوجه الواحد والوحيد من المعرفة البشرية، ولا يشكل بمفرده الفهم البشري للكون.

فما أشبه إنكار الغاية على أساس عدم إمكان الإهتداء إليها بالنظريات، بإنكار وجود الموسيقى لأنك لا تستطيع أن تعزف النشيد الوطني على الحاسوب.

وإلى جانب هذا التناقض الفادح نشير إلى الإنتقادات اللاذعة التي وجهها الأستاذ جاك مونود J. Monod للعلم ولخصها في درسه الإفتتاحي المشهور في كوليج دي فرانس Collège de France يوم 29 ديسمبر 1967 حيث ذكر بأن العلم وسليلته التقنية باتا بحكم تعقدهما المفرط والمتراكم عبر قرون تتجاوز قدرات الفهم والتحكم لاكفأ وأقدر العلماء، وأن ذلك الإحساس تحول إلى شعور الإنسان بالإهانة والهوان أكثر منه شعور بالقوة والعظمة.

كما أن لنتائج الإستعمال المتعسف لمبتكرات العلم في الميدان التجريبي العلمي والسياسي من السلبيات ما جعل بعض العلماء يسائلون أنفسهم حول فضاعة وجنون الأعمال التي قدمتها أيديهم الملوثة والأثمة بحكم ما وقع سياسيا بالخصوص. وتذكر بعض الدراسات أن نفرا من العلماء لم يترددوا في القول بأن «الملاك» جاليلي الذي أخرج الطبيعة من ظلام الليل إلى نور العلم تحول إلى ابليس انشتاين الذي أغرق الطبيعة في ظلام الذرة. كما أشار مونود Monod إلى المخاوف التي إنتابت كانط Kant حول الإستعمالات السلبية للعلم وهذا في عصر هادئ نسبيا مقارنة بعصرنا هذا، إذ لاحظ ببصيرته النيرة بأن الصور الآلية التي ينسجها العلم حول النظام الميكانيكي للعالم بلغت مستوى من الدقة والصرامة والآلية والتراص أن لم يبق فيه أي مكان يشغله الإنسان، بل ولا حتى من وظيفة يقوم بها ما خلا وظيفة ملاحظة وتقدير جريان الظواهر الطبيعية جريانا مطردا لا انكسار في سلاسله المتداخلة بأحكام وبلا خروق ممكنة لها.

إنه نظام بلغ درجة قصوى من الآلية الباردة، ليعيد تأكيد فكرة انغلاق العالم على ذاته واكتفائه الذاتي في كل شيء، بحيث أنه لا يحتمل أي تدخل خارجي عنه عن طريق

المعجزات السماوية مثلا، أو الحرية الإنسانية البادرة بل وحتى طيش الصدفة تنتفى من هذا العالم الأصم.

والغريب هنا هو أن العلوم العاجزة عن تفسير وتحليل ظهور الحياة و«طفو» الإنسان على سطح الأرض لم تتحرج في الإلتجاء إلى طيش الصدفة بعد أن تنكرت لها وأقصتها من نظام الكون المشمئز من كل بخت، والمتخوف من الفراغ مهما كان (أرسطو).

ونشير إلى مأخذ آخر حلله مونود بإسهاب لأهميته القصوى في نظره وفي نظرنا نحن الآن ويتعلق بشكل آخر من التناقض الخطير الذي وقعت فيه العلوم حينما دعت إلى إقامة المجتمع على أسس علمية (قيمية) مع اصرارها العنيد على رفض كل ما هو قيمي. كما قلنا منذ قليل على لسان استانل بيت.

ألم يكن العلم جهالا بالقيم؟ ألا يقوم العلم من جهة أخرى على نوع من الزهد ينطوى بالضرورة على سلم من القيم كقيم المعرفة والحق والجمال؟ وهل يستطيع العلم مع كل ذلك أن يبرهن على صحة أو خطأ القيم وبكل موضوعية؟ ألا يؤدي بناء المجتمع على أسس علمية تضعها وتفرضها فئة قليلة «نيرة» من الناس على أغلبية الفئات الأخرى الجاهلة لتلك القيم إلى استيلاب المجتمع؟ أليس ذلك منشأ الإستيلاب عينه في المجتمع المعاصر كما يتساءل جاك مونود؟

وننهي هذه النقطة المتعلقة بموقف الفلسفة من التنبؤات والممارسات العلمية ونشير إلى أن موقف الإنسان من العلم يقوم على نوع من الإزدواجية. فالعلم القائم اليوم والطابع للمجتمع المعاصر بطابعه الوضعي والموضوعي ينطوي على جانب إيجابي وآخر سلبي. فالجانب الإيجابي يتمثل في تمكين الإنسان من وسائل السيطرة الفعالة على العالم المحيط به كما أنه يقدم ولو لفئة قليلة من الناس منافع ومعارف نظرية ذهنية عقلية كبيرة وممتعة. أنها مواقف تخاطب وتتملق بل تبرز كل ما في الإنسان من قوى كامنة وتجد في العلم وتقنياته فرصة التعبير والتحرر وما تحمله من مشاعر القوة والعظمة والذكاء. إنه الجانب العقلي المفرز «للعسل» على حد تعبير الأستاذ همبورجر J. Hamburger.

أما الجانب السلبي فإنه منفر وبغيض لأنه ينطوي، رغم رغبة الإنسان في إخفاء ذلك، على فكرة الحتمية، المتضمنة نظريا لإمكانية التنبؤ بأفعال الناس الحاضرة والمتسقبلية، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى تقليص قوة الإنسان التي أبرزها الجانب الإيجابي - وبطبيعة الحال فإن الناس يفضلون التعامل مع الجانب الإيجابي للعلم لكونه ينفس عن قوى الإنسان ويصعّدها، بينما يعزف عن جانبه السلبي القابض على قوى الإنسان وكبتها، كما يعزف عن استعمالاته السياسية - العسكرية السلبية، النابعة أصلا عن هوى الإنسان وعواطفه، طالما أن هذا «العسل» قد يتحول إلى السم القاتل كما يقول همبورجر.

وهكذا ظل الناس في حيرة من أمرهم لا يدرون كيف يختارون موقفا واحدا فقط من بين موقفي العلم المتضاربين والضروريين في الوقت ذاته:

فالعلم المصادر لفكرتي العلية والإستنباط يسلح الإنسان بمختلف الوسائل الناجعة والنافعة لتسخير الطبيعة والمجتمع والسيطرة عليهما. وهو بهذا يؤكد حرية الإنسان الخلاقة والمبدعة. ولكنه في نفس الوقت يضيق عليها على مستوى الممارسة، لأن كل ما في الكون، بما في ذلك الإنسان يخضع للتنبؤات العلمية الصارمة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أسس العلم ومبادئه قد تعضرت لانتقادات منهجية سديدة كشفت بل وفضحت الطابع اللاعقلاني للعلم. وقد يكون في ذلك تحديد لقوة العلم وبسط لإرادة الإنسان «الحرة». ويرى ب. رسل B. Russell أن هذا المشكل محير فعلا، وأن المناقشات المنتقدة للعلم ما فتئت تزداد حدة يوما بعد يوم وأن الحل ليس في متناول اليد بعد.

ويبقى الفضل في الحركية العلمية راجعا أساسا إلى الفلسفة التي تحي العلم وتنشطه بعد كل إسترخاء أوتكاسل أوميل إلى العمل اليومي الرتيب المل، ونتمنى مع رسل Russell أن يكون المستقبل كفيلا بإيجاد حل مرضي لهذا المشكل المعقد. يستحضر مركبا جديدا من العلم والثقافة بعسل العقل وسم العواطف.

أما عن التنبؤات التي أحبكت مناظرها الخلابة والمغرية مختلف العلوم فيمكن القول بأن العلم الواثق ثقة مطلقة قدراته النظرية اللامحدودة على معرفة كل شيء قد وعد بتسخير مخترعاته التقنية لتخليص الإنسانية «كافة» من مشاكلها المعقدة والخطيرة، بل أن العلماء قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين أكدوا بأن الطلسم الذي سيحول الجهل معرفة بكل شيء وشيك الإستحضار، وأن العلم من حيث هو قوة كما قال بيكون F. Bacon من قبل، هو وحده الكفيل بحل مشكلات الناس مهما كانت.

وهكذا كان الوعد ولكن بقي الوفاء به معلقا، والعلوم ما إنفكت تكشف الغطاء يوما بعد يوم عن أسرار الظواهر الكونية والمجتمعية، وهو ما دفع بالإنسانية في مغامرة مثيرة لا أحد يعرف مآلها ومنتهاها خاصة بعد أن اعتزم الإنسان تعمير الفضاء القصي والمحيطات العميقة وبعد أن بسط يده على الأرض، المأهولة منها والمهجورة، كما صمم على بناء مجتمع عصري على أسس «علمية» ووفق قيم المحبة والأخوة والمودة، يسوده من الإنسجام والتآلف والتواصل ما يمحي كل أسباب وعوامل الكراهية والعداء والنفور والعزلة. ولكن هل وفّى العلم بكل ذلك؟ وهل بإمكانه ذلك؟

إن التقدم العلمي المتسارع والمتراكم باطراد لوسائل الإتصال والنقل جعل العالم قرية صغيرة، إنمحت فيها الحواجز والحدود سواء منها الطبيعة والإصطناعية أو السياسية والثقافية، بل أن لقوة وبلاغة الجملة المدعمة بأثر الصورة المنقولة عن طريق وسائل الإتصال الفضائية أضحت تمطر في كل مكان نفس النمط الموحد من السلوك اليومي ويتكرر بكيفية متطابقة ومتشابهة عبر مختلف أنحاء العالم المنكمش. ويلاحظ الأستاذ سيرج لاطوش S. Latouche في كتابه القيم «غربنة العالم» (أي أن العالم أصبح غربيا) بأن السياحة لم تعد مجدية، وأنها فقدت دورها الحيوي في التربية الثقافية الجغرافية والتاريخية وحتى الجمالية التهذيبية.

فتشابه المدن في عمرانها وهياكلها المختلفة وانطواء الناس ضمن قوالب سلوكية موحدة، مفروضة أو مستوردة جعل الناس تتشابه تشابها منفرا. يقول نيتشه ن في هذا الشأن بأن عولمة الديمقراطية والإقتصاد سيفرز نمطا موحدا من الناس يتشابهون في كل شيء خاصة في الرداءة وفي القابلية للإسترقاق، وسيصنع الناس بأيديهم القهر

والإستبداد الملائم لحالهم الوضيع. وحتى تكتمل هذه الصورة القاتمة يلاحظ نيتشه بأن الإنسان المعاصر المستكين إلى الإيمان السطحي والقيم المتبذلة بات يلعن العلم والمعرفة ويتبرأ منهما. ولكن ما شأن الفلسفة من كل ما سبق؟ وهل هي المسؤولة عما حدث حتى تسأل؟ وهل بقي لديها شيء تفعله بعد أن أفرغها العلم من مضامنيها الحيوية؟ وهل يعقل أن يسترشد بها سواء السبيل لإقتحام المستقبل في ثقة وطمأنينة؟ نعتقد أن وضعية الإنسان الحالية لزمت لزوما تاريخيا ومنطقيا عن الطريقة التي تعاملت بها الإنسانية مع الماضي وعملت بمقتضى المحصول التاريخي على استشراف المستقبل وترقبه أو تجنبه بالرجوع إلى الماضي المريح. وحيث أن الحقب التاريخية في تلاحقها وتلاقحها لا تتمايز فيما بينها إلا بفلسفاتها النابعة من أحشائها والحاملة لهمومها فماذا يمكن أن تقدمه الفلسفة للقرن القادم، قرن جميع الأخطار والطامات الكبرى كما تقول بعض الدراسات الداقة لناقوس الخطر؟ فإذا كان القرن 20 بحسب هذه الدراسات قرنا نذيرا، فهل سيكون القرن 21 بشيرا؟

نعتقد أن الفلسفة لن تكون في مستوى المسؤوليات الملقاة على عاتقها إلا إذا تجاوزت الأزمة المزدوجة التي تمر بها:

- أزمة بيئية مجتمعية متسمة بالتوتر والقلق والخوف من كل شيء كالخوف من نهاية العالم المحتومة، والمقدرة «علميا». كما مر منذ قليل، الخوف من نهاية التاريخ بعد أن دار العقل دورته الكاملة على نفسه وبلغ المطلق أو كاد، بالإضافة إلى هاجس الخوف من نهاية الأيديولوجيات المجندة والمخدرة لملايين البشر وراء أهداف لا تعدو سرابا ووهما في حقيقة أمرها.

فهل يمكن لعصر إغتيال العقل (برهان غليون) وانهزامه (فنكيلكروت Finkelkraut) أن يعد بشيء سوى بنهاية كل شيء؟ والوجه الثاني لأزمة الفلسفة المعاصرة تعسكه بنية الفلسفة ذاتها من خلال (نوعية المسالك المنتهجة، وطبيعة القضايا المطروحة وحقيقة الغايات المرسومة. إنها وضعية حللها المفكر التشيكي المعاصر جان باطوشكة J. Pa-tocka، بعناية فائقة في كتابه إلهام «أفلاطون وأروبا»، ولخصها ضمن أحد فصول

الكتاب المذكور بعنوان: هل نهاية الفلسفة محتملة؟ وفيه ظل باطوشكة J. Patocka يعاتب الذين يرمون بالفلسفة من أعلى نافذة العمارة ثم يقولون لها إياك أن تسقطي. الواقع أن حال الفلسفة سيء للغاية: إنها فقدت كل شيء:

فلم تعد لها أفكار جديدة توقظ بها الناس من استرخائهم اليومي للرياش المريح والقاتل للذكاء، وليس لها قضايا جديدة تملأ بها مناقشات الناس الخاصة والعمومية.

فهي لم تعد تجترح منهجيات جديدة تهز بها مناهج العلوم المستقرة والآمنة، وهي تلك المنهجيات التي باتت تروّض الذكاء أكثر مما تفتقه وتنمّيه كما يقول توماس كوهن T. Kuhn.

وإذا كانت الفلسفة بالإضافة إلى ما سبق تشك من نفسها وتشكك الناس في حقيقة أمرها أفلا يكون ذلك انتحارا شجاعا لها بعد أن ضاقت بها السبل؟

فهل يعني كل هذا أن أجل الفلسفة قد حان ليتوج النهايات المأساوية المذكورة للميتافيزيقا والتاريخ والعالم؟ ولكن من سيرثى الإنسان إذا تحققت تلك النهايات؟ نعتقد أن وضعية الإنسانية المعاصرة، وإن أكثرنا من الإشارات اليائسة حولها، يلخصها العلامة الألماني بيتر اتيسلاندر Peter Alteslander في كتابه الجاد بعنوان «آخر أيام الحاضر». وقد ذكر فيه قصة ثلاث ضفادع سقطت في وعاء من حليب؛ فقالت الساقطة الأولى لن أفلت من هذا الوعاء مهما فعلت، ولم تتحرك، فماتت غرقا، وقالت الثانية، ألا خوف علي ولا أحزن، إذ لا شيء خطير في الأمر، فماتت غرقانة، أما الثالثة فإنها أخذت تتحرك بهدوء ونظام يمينا وشمالا حتى إذا أحست بشيء يابس بين قوائمها لما تحول الحليب زبدة، جمعت الضفدعة قواها فقفزت وأنقذت نفسها من الهلاك المحتوم.

إن مثل هذه الدعوة الرزينة إلى مواجهة الكوارث مهما كانت بكل هدوء وتبصر من شأنها أن تلقن الإنسانية الحائرة في أمرها درسا مفيدا يجنبها الغرق بفعل التشاؤم أو التفاؤل المفرطين.

فهل من حل في الأفق إذن؟

نعتقد بأن الحلول موجودة فعلا ولكنها تظل مرتبطة عضويا بالجواب المنتظر عن السؤال الميتافيزيقي المركزي: أشرنا إليه منذ بداية البحث وهو ما الإنسان؟ وماذا تريد الإنسانية، وأي إنسان تريده؟

هل تريد إنسانا لا تصدر سلوكاته إلا عن المنعكسات الشرطية واللاشرطية «لكلب» بافلوف Pavlov وهل تريد أن تشكله وفق نمط سلوكات «فأر»شورندايك؟

ثم هل تريد الإنسانية من جهة أخرى أن تقهر الجوانب الحيوانية الطبيعية الملحة في الإنسان وتحوله إلى إنسان الشبح يعيش بلا رغبات وذنوب أو أخطاء؟ كأن نجعل أياديه بيضاء لامعة ولكنه في حقيقة الأمر لا تكون له أيدي اطلاقا كما يقول كانط Kant.

إن الجمع بين الجوانب المادية الملحة وبين المستويات النفسية والروحية الضرورية كفيل بإقامة إنسان متزن منسجم ومتكامل في جسمه وروحه.

فإذا إقترب الإنسان من ذاتيته الحيوانية وتصالح معها لما يشبع حاجياته الطبيعية، فإنه يتطلع في ثقة نحو المثل العليا لحد التشبه بالله كما يقول الكندي اسحاق أبو يعقوب، وهو يسعى لتحقيق الكمال المشروع. ولا يتحقق ذلك في نظرنا إلا بوضع منظومة تربوية تجمع بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية - الإنسانية، وتشكل فيها الفلسفة هذا الجسر المفتوح للفكر، تمر من خلاله الأفكار وتتجول بين حقلي المعرفة حرة طليقة بلا شرطة أو «جمارك للفكر». فهل يمكن إقامة سوق حرة للأفكار؟

كما نعتقد بأنه لم يعد يكفي أن نكون أناسا يعرفون الشيء الكثير عن ميكانيكا الطبيعة والكون، ولكنهم يجهلون كل شيء عن «ميكانيكا» المجتمع والتاريخ.

إن تثبيت أنظار الناس في الفضاء بعد تحويلها عن المشاكل اليومية المعقدة قد يصيبهم ما أصاب طاليس الساقط في البئر. كما أن توجيه إهتمام الناس صوب تكديس الأشياء والتباهي بها يحولهم إلى قطيع لا يجري إلا وراء بطنه. نعتقد بأن دور الفلسفة إنما يكمن أساسا في لفت إنتباه الناس إلى المشكلات المهمة وصرفهم عن التافه منها، تعلمهم كيف يواجهونها بصبر وثبات. بيد أن الفلسفة المسجونة وراء

قضبان مباني الأكاديميات والجامعات أو بين ثنايا سياج المذاهب الفلسفية المنظرة، قد تحولها عن وظيفتها في نقد وتربية وترقية فكر وذوق الناس لتتحول إلى إيديولوجية رسمية للدول، ناهيكم أن ما يسمى بالفلسفة الجامعية أو فلسفة لأساتذة لم تكن دائما بريئة من الإنتماءات الحزبية للسياسات والأيديولوجيات، السيّارة في المجتمع، ويكون ذلك بصفة صريحة معلنة أو بطريقة ضمنية خفية.

فعسى الفلسفة ترجع إلى حيث كانت شريدة مع سقراط جوالة بين الأماكن العمومية تتصنت هموم الإنسان وتشاركه حيرته وخوفه وتحاول أن تجيب عن تساؤلاته باللغة التي يفهمها. ألم يكن عملها دوما مقتصرا على توضيح رؤى وأفكار الناس حول العدالة والفضيلة، والشجاعة والحكمة والمعرفة والجمال، وهي تلك الأفكار التي يعيش الإنسان بها ومن خلالها حياته اليومية في المجتمع وفي التاريخ.

وعليه فإن إهتمام الفلسفة بالإنسان هو في الواقع إهتمام بالمجتمع أي بالسياسة. ومعنى هذا أن الفلسفة لم تستقل أبدا وفي يوم من الأيام عن السياسية، على أساس أن الفلسفة المنظمة لمعارف الإنسان تعمل على تحطيم الحواجز المعرفية المنصوبة لتحديد المعارف الإنسانية المتوارثة بالتربية، بينما السياسة من حيث هي تنظم المجتمع تعمل من جهتها على تكسير أغلال النظم القائمة، واستبدالها بنظام أفضل وأعدل.

هكذا كانت الفلسفة والسياسة تعملان على توفير الجو الملائم لحياة الإنسان والمجتمع، فأفكار الإنسان لا تقف على أرض مستقرة بفعل النقد والمناقشة والحوار، وفي ذلك تنشيط للفكر وتنبيه له واستزادة للمعارف، كما أن نظم المجتمع لا تستقر إذا لم تقم على أسس الحرية والعدالة والكرامة.

ويعتبر كل ذلك تأكيدا وتكريسا لمبدأ استقلالية ورشادية الإنسان والمجتمع وقدرتهما على التحرر من شتى أنواع الوصايات المفروضة عليهما في ميدان الأفكار والقيم والنظم والممارسة الإنسانية والمجتمعية.

ألم تكن تلك الممارسة شعارا لفلاسفة الأنوار لما صدعوا في وجه الإنسان قائلين له: كن رجلا أيها الإنسان، فكّر في نفسك وفي المجتمع والطبيعة والتاريخ بنفسك وأصرخ باستقلاليتك!

ولكن الأستاذ مونرو Monnerot أنهى دراسة في سوسيولوجيا السياسة بتساؤل وبملاحظة يمكن أن تنسف كل ما قلناه إذ تساءل هل بلغ الإنسان والمجتمع من النضج الفكري والسياسي ما يجعلهما يستغنيان عن قيادة وتوجيه الآخرين له؟ هل بلغ مستوى مستنيرا حتى يمارس الديموقراطية ويكون جديرا بها؟ وهل يمكن أن نجعل من الممارسة الفلسفية حقا أساسيا من حقوق الإنسان المشروعة، وإن لم ينص عليه تصريح إعلان حقوق الإنسان للأمم المتحدة فهل يمكن تدارك ذلك؟ والتنصيص عليه صراحة؟

الخلاصة:

وفي الختام أدعوكم إلى التمعن معي في خلاصة النتائج الميتافيزيقية التي اهتدى إليها العلامة الإنجليزي ستيفان هوكنج S. Hawking في كتابه الهام «الوجيز في تاريخ الزمان».

وملخص منطوق الفكرة هو أن الإنسانية لو نتمكن من إكتشاف نظرية شاملة وكاملة، وتكون من السهولة والوضوح أن تغدو في يوم من الأيام مفهومة في خطوطها العامة على الأقل، لدى الناس كافة وليس عند الفئة الخاصة من العلماء فقط، لأمكن لنا جميعا فلاسفة وعلماء وعوام الناس من المشاركة بل والمساهمة في مناقشة مسألة معرفة لمذائية الكون؟ ولماذا وجد؟ وإذا إهتدينا إلى وضع الجواب عن هذا السؤال سيكون الإنتصار النهائي للعقل الإنساني، وعندئذ فقط سنعرف المطلق.

فهل ستحقق الأمنية - الحلم -؟

وهل بإمكان الفلسفة إنجاز ذلك؟

RESUME DE LA COMMUNICATION DE MONSIEUR ALI ZIKI: AU 1er CONGRES INTERNATIONAL DE PHILOSOPHIE DU CAIRE

Ali ZIKI

Institut de Philosophie, Université d'Alger

Titre du sujet:

La philosophie comme lieu de contact et facteur d'équilibre entre les deux cultures, scientifique et littéraire:

Nous partirons de cette idée simple, que les sciences connaissent depuis trois siècles des progrès prodigieux, tant au niveau des connaissances qui s'accumulent à une cadence jamais égalée, qu'à celui des applications de leurs inventions techniques, qui touchent désormais tous les domaines de la vie humaine, allant du pain quotidien jusqu'à l'exploration et la domestiquation, probablement prochaine, de l'espace.

Cette situation combien flateuse de l'orgueil et de l'imagination illimitée de l'homme, auto-proclamé, maître de la nature, entraine des conséquences des plus dangereuses menaçant d'anéantir toute forme de vie sur terre.

L'Humanité contemporaine connait de ce fait, une situation des plus paradoxales.:

La science qu'elle cultive avec patience et persévérance depuis plus de vingt cinq siècles pour résoudre ses problèmes, lui en crée, en fait, plus qu'elle en résolve.

Bien plus, la science, pensée par/pour l'homme, se retourne contre lui, en le déclarant étranger dans un univers qu'il a pensé, et dans lequel il n'a plus de place assignée et nécessaire.

Alors, n'ayant de prise sur aucune chose, il déclare sur la base des données "scientifiques", la fin inéluctable de toutes choses. De la mort de Dieu, suivie par celle de l'homme, celui-ci se met à élaborer et confectionner une "Pensée de la Fin".

Fin du Monde, de l'histoire, des idéologies, suivie depuis quelque temps de celle de la philosophie.

Nous nous proposons de souligner le caractère nihiliste et fasciste de cette néfaste pensée, qui n'aboutit qu'à la déstruction programmée de l'homme.

Aussi, pour répondre aux attentes, oh combien nombreuses, placées en elle, la philosophie doit repenser tout. Elle doit établir des passerelles entre les différentes disciplines scientifiques, créant ainsi une sorte de marché libre d'idées nomades, passant de la physique à la biologie, de la sociologie à l'histoire à la littér-

ature, enfin à la philosophie lieu de ressourcement et de confrontation pacifique d'idées, et facteur d'équilibre entre le miel de la raison et la cigue de la passion.

Ce passage, voire cette promenade non guidée entre les différentes disciplines, se fera sans obstacles de gardiens entre les domaines des sciences, ni "Franchises de douanes".

En faisant de l'homme moderne, Philosophe-Savant et Savant-Philosophe, celui-ci aura tout à gagner, surtout une liberté de pensée sans fin.